أربعون عاما

لم أكن في حياتي أومن بالحب من أول نظرة، فأي شيء أثار عواطفي بمثل ذلك العنف لهذا الشاب الذي لم أكن أعرفه قبل يومين..

لم أشعر يوما بالرغبة في أن يضمني رجل، في أن يلهب شفتي كما شعرت في تلك اللحظة حتى لأحس بحنين قلبي يطفر دمعا رقيقا في عيني وأنا أصغي اليه مسحورة بما أوتي من موهبة فذة بتصوير المواقف وتحليل الناس تحليلا عميقا فيه كثير من قوة الملاحظة ونفاذ البصيرة وروح المرح. كنت أتأمل وجهـه الأسـمر المربع وعينيه الشهلاوين تلتمعان ببريق ذكاء حاد، وشاربيه الرفيعين يظللان شفته العليا ويكثفان تحت أنفه المستقيم، وفمه المعبر يكشف عن كل أسـنانه النـضيدة المتلألئة وهو يتحدث وقد مال بجسده الى الأمام، ورفع عمرته الى أعلـى جبينـه الدافق المستدير، وبان الحد الفاصل بين ما لفحته الشمس وما بقـي دون لفحهـا، وهمست لنفسي وأنا أحس بالرعشة تهز كياني "ان رجولته طاغيـة، وجاذبيتـه لا تقاوم!

رحت أسير واياه في الشوارع على غير هدى، يدي بيده ولست أدري الـى أين ينتهي بي ذلك الحب الوليد، وتوقفنا معا قرب ياسمينة تطل من حاجز حديقـة وتفعم الجو بعبير شاعري في أصيل ذلك اليوم من أوائل ايلـول.. ونـزع منهـا بضعة زهرات ناولني اياها ونظر الي بشغف وابتسم ابتسامة فاتنة، آه لقد وجـدت رجلي! لا يمكن أن تكون تلك النظرة عابرة في حياتي، انني أحس بحدسي الذي لا يخطئ أن القدر أبرم مصيري..

لم أكن حين جئت دمشق قد لملمت بعد جراحي إثر وفاة أختي.. لقد تـصدع قلبي حتى لأخال برؤه محالا ولو مضى عليه مائة عام، لكأنما فارقه الـى الأبـد الأمل والمسرة والعافية، وعبثا رحت أنشد السلوى والعـزاء، لقـد طعنـت فـي أمومتي، وهل كنت سوى أما صغيرة لأختي؟ كنت أتمنى لو أغـرق فـي حـب كبير، أن أشد قلبي الى قلب أغرق فيه أحزاني ولكنني كنت أخـشى الحـب بعـد تجربتي القاسية حتى أختي الصغرى وأصغر أخـوتي أغلقـت دونهمـا قلبـي،

وانطويت على نفسي أكتب في سريري حتى يدور رأسي إعيـاء، فأنـام وقلمـي ودفتري تحت وسادتي، أو يعضني الجوع فآكل ما يسد رمقي وأعود متلهفة الـى الكتابة. وكنت كثيرا ما أسمع تذمر والدتي في المطبخ حين يرهقها العمل لعائلـة كبيرة فلا تجد معينا لها فأتأوه في صمت، وأسترسل في عملي متوترة الأعـصاب هائجة النفس أريد جاهدة لو أبرهن لها أنني لا أضيع الوقت دون طائل، ولم أترك التدريس عبثا في شيء غير مثمر.. وأقول لنفسي وأنا أتحرق لأنتهي مما أنا فيـه "غدا سأشتري لك يا أمي آلة غسيل، وأبني قبر أختي، وأنفق على تعلـيم أخـوي وأساعد أخي عادل ليتزوج"، هذا الأخ الحبيب الباسل ذو القلب الـذهبي الـذي لا يضن بروحه من أجلنا، هذا الأخ الكريم الذي قدم لنا عشرين عاما من جهده دون أن يتذمر أو يمن علينا.. آه لو أن جهدي يثمر فأفيه بعض ما أدين له! فلولاه لكنت اليوم جثة في قبر.. كنت أحس بالنار تشتعل في ضلوعي وأنا أراه يكدح طـوال شهر لقاء سبعين ليرة، وعندما أسمع شخيره يتعالى في الليل من الإعياء لا أملـك الاّ أن أشيح بوجهي وأذرف الدمع، لماذا لا تتيح هذه الحياة السعادة لأفراد عائلتي؟ لماذا يكدحون جميعا دون أن تتوفر لهم أبسط متطلبات الإنسان؟ كنت حين يـأتي مستهل كل شهر وأسمع الشجار ينشب بين أخوي حول تـدبير النفقـات أشـعر بالخجل أنني لا أعمل ولا أساهم معهم في الضائقة التي تأبى أن تزول، ولكننـي أواري خجلي، وأستمر بالكتابة، أريد أن أنقل الى الورق ما شاهدته فـي دنيـاي، أريد أن أبني أدبا يخدم الناس وقضاياهم، أدبا يثور على كل ظلم واستثمار لهـم، أريد أن أطور ثقافتي لأخدم أدبي، لقد عملت ثلاث سنوات لأفي أثمـان الأدويـة وماتت أختي! لم أستطع انقاذها. ولعل الدور سيلحقني، ألست أرى وجهـي فـي المرآة ذابلا شاحبا وعيناي قد فقدا البريق؟

لم أكن أريد أن أموت وأدفن ثورتي معي، وكنت أريد أن أراها لهبـا علـى الورق، فصحتي المرهفة تذكرني دائما أن العمر لن يطول بـي فـأتحرق شـوقا لأجعل من حياتي القصيرة شعلة حية لغيري..

أحببت أدبي الى الدرجة التي أضحي فيها بالزواج والأمومة لأرتفع وأسـمو به الى الخلود، وفي العمر الذي تتلهف فيه الفتيات للحب والزواج، كـان يـشغل

فكري هموم العالم من حولي، تعصف بي ارادة التغيير، أحلم بعالم أفضل، أمسك بقلمي لأناضل من أجله دون أن أعرف طريق النضال، أتحدى به الموت في ميعة الصبا دون أن أترك أثرا، أشعر بأنني مسؤولة أمام ربي عن هذه الموهبـة التـي فجرتها الأحداث الدامية في أعماقي، فما قيمة أفراحي الخاصة أمام فرحتي يـوم يثمر النضال في سبيل حياة أفضل ويتوج جهدي المتواضع في تحقيقه؟ ولكن كان من العسير علي أن أجعل من حولي يدركون هذه الأمور حين أغلـق أذنـي دون نداء الحياة اذ تناديني.. لماذا أشعر بالكآبة تعصر قلبي لما تخفق له قلوب الفتيات غيري، ولماذا يبدو لي الزواج كمدفن علي أن أواري فيه كائنـا عزيـزا علـي، عزيزا علي أكثر من نفسي..

عبثا رحت أقاوم ارادة الحياة القاهرة في أن أحب وأكـون زوجـة وأمـا، وحرت في نوازع نفسي تؤرجح بي كرقاص ساعة، فلا أكاد أوشك على أمر حتى أنفر كغزال شرود.. لم أخلق لأسر نفسي في رابطة تفرض علـي ارادة غيـري، أفيمكن أن يضع هذا الرجل حدا لقلقي وترددي، ولا يترك لي مهلة التفكيـر فـي أمري؟ كنت أرى هذا في عينيه وهو ينظر الي.. رأيت فيهما أحلامي وأشـواقي واستمرار نضالي، وكنت أحس بهذا في أعماق سريرتي، فالإنسان تعبر به أحايين يكون فيها أقوى ما يكون ثقة بنفسه، ثم تزحف وراءها أحايين أخر يـصبح فيهـا على أوهن ما يكون. لم أكن مستعدة وأنا مشرفة على أبواب عام جديد أن أعـود الى المدرسة فتهتف بي المحاسبة في عجب: ألم تتزوجي بعـد؟ وتلاحـظ بـضع شعرات قد ابيضت في غرتي قبل الأوان وتنصحني أن أعجل بالزواج..

آه لو أن الناس يتركونني وشأني! آه لو أن أهلي يتركونني وشأني! ان أمـي لا تفتأ تقول لي بأنني أضيع شبابي سدى في عبث لا طائل منه وسـأندم حـين لا ينفع الندم..

أولم تصدق فراسة أمي؟ أو لم يصدم الواقع المر أحلامي وأماني؟

كنت قد ذهبت في العام الذي مضى مع أخي عادل الى ناشر فـي بيـروت أعرض جهدا كلفني ثلاث عطل مدرسية ثم عاما بعدها انقطعت عـن التـدريس، وكنت أحرق دماغي عشر ساعات في اليوم وأنا أكب على تلك الرواية التي كتبتها

بكثير من الدموع وتوتر الأعصاب، وهيجان العاطفة.. بل ألم أكن أطفئ حيـاتي كي أجعلها تنير؟

قلب الناشر صفحات "بستان البرتقال" على عجل وقال "ان لغتك صـحيحة، فعندنا في لبنان نادرا ما تكتب الفتيات عندنا بعربية سليمة..

- أهي مجرد لغة صحيحة؟

كنت في مستهل حياتي أكتب بأسلوب منمق مقلدة أسلوب طه حسين، ولكنني لم ألبث أن تركت نفسي على سجيتها، وتحررت لغتي من كل تقليد، وتحررت من كل صنعة وتكليف.. ما عدت أريد منها الاّ أن تكون روحا تنقل أفكاري كـالريح، كاللهب.. ما قيمة اللغة والكلمات ان لم تكن حياة؟ ان لم تبك حيث يـراد لهـا أن تبكي، وتضحك حيث يراد لها أن تضحك، وتبعث على التفكير حيث يراد لهـا أن تبعث على التفكير، وتطلق طاقة الإنسان المبدعة أو ثورته على الظلـم والكبـت والنفاق. ما قيمة اللغة والكلمات أن لم تكن عامرة بصدق العاطفة، شـجاعة فـي الحق، مفعمة بحب الجمال وبحب الإنسان، وبحب الإنطلاق والحرية لهذا الإنسان؟

قال الناشر وهو لا يزال يقلب الصفحات بفعل الإسـتمرار دون أن يتوقـف ليقرأ شيئا منها.

- هل تحسنين لغة أجنبية؟
- نعم وأدرسها.
- حسنا جدا، من الأفضل أن تترجمي، انني أعرف السوق، والمترجم منها ينفق أكثر مما ينفق الموضوع.
- ولكنني لا أرغب أن أضيع وقتي في الترجمة.
- يجب أن تبدئي حياتك الأدبية في الترجمة، لا تتعجلـي! اسـتمعي الـى نصيحتي ان كنت تريدين أن تستفيدي من أدبك وتجدي له سوقا.
- كيف لا يجد أدبي سوقا، وآلاف الكتب التافهة تغمر السوق؟
- ربما كانت لأدباء معروفين.
- الأديب المعروف بدأ حياته الأدبية غيـر معـروف، النـاس يقـرؤون ويميزون.

- انني أطبعها ان شئت على حسابك.

وبدا واضحا أن الناشر لا يريد أن يغامر في طبع رواية لأديبة غير معروفة، وقلت لنفسي "انه تاجر يفكر في ربحه فلأكن لبقة ولأحادثه من الزاوية التي يبالي بها..

كنا جالسين أنا وأخي والناشر في مكتب الأخير الأنيق.. انه شـاب عمـلاق وسيم أنيق كمكتبه، وله نظرة متفرسة يحاول بها أن يستشف ما يدور فـي خلـد الآخرين، قال وهو يحدق بي النظر:

- قد تظنيني تاجرا، قد تقولين بأنني أساوم.
- بل كنت أظن أنه أفضل لي أن أبحث عن ناشر يقدر الأدب الموضـوع، الوثيق الصلة بحياتنا ومعاناتنا.

ووقفت أتهيأ للإنصراف. فقال:

- أتركيها لي أقرأها بامعان، ربما أصبحت مـن عـشاق أدبـك. وأردف ضاحكا:
- ان الأدباء دائما يكرهون الناشرين، انه عداء قديم، ولكن ثقي أنني لست تاجرا ولست أساوم وانني أعشق وأقدر الأدب أكثر من الأديب نفـسه، وأريد مخلصا أن أساهم في النهضة الأدبية ولكنني أنصحك، انني أعرف ما يرغب به القراء، هذا عصر الكتاب المترجم، وخصوصا في لبنـان، الشعب هنا لا يحب الاّ ما يأتي من الخارج.

وأحسست بالغضب يشعل دمي وقلت:

- ان الإنسان عندما يترك عمله الذي يعيش منه ويتفرغ لوضـع روايـة، ويلقى العناء الجاهد، لا يغامر من أجل عمل تافه، من سوء حظي أننـي لا أستطيع أن أطبعها على حسابي.

رتب الدفاتر الأربعة البرتقالية اللون ذات المائتي صفحة واحدا فوق الآخـر بعناية وقال:

- ماذا تظنين أنني أستطيع أن أدفع لك فيها؟
- لست أدري، انك لم تقرأها بعد..

- وتأوهت في ضميري أنني أجعل من تاجر حكما على إنتاجي، ابتسم:
- كل أديب يأتيني، وملء رأسه الأوهام..

ولم يتم، اذ دخل المكتب بضعة رجال قام لاستقبالهم، وقال أخي عادل الـذي كان يصغي للحوار دون أن ينبس بكلمة.

- هيا بنا، ان الرجل مشغول، وعلينا العودة قبل انقضاء النهـار، أو أننـا سنضطر للمبيت في فندق..

وأحسست بالقهر يدمع عيني:

- ليس بوسعنا أن نأتي كل يوم الى بيروت، احتملني ولـو كلفتنـا هـذه الرحلة، سأنشرها مهما كلّف الأمر، انها تفتح لي طريق الإنطلاق، انني واثقة بأنها تقف في صف الأدب العالمي.

لم يكن عادل قد قرأ روايتي، بل لم يكن ليقرأ حتى قصصي القصيرة، وهل لديه فراغ ليقرأ قصصي؟ آه ان الناس الذين أكتب قصصهم، النـاس الـذين أتحرق من أجلهم لا يمكن لهم أن يقرأوني!

لم يلبث أن عاد الناشر الى مجلسه بعد أن خرج الرجال وقال:

- ان أحدهم أديب يلح علي أن أطبع قصته دون مقابل.

ضاقت بي الدنيا، وتململت في مكاني، وابتسمت بمرارة:

- ولهذا لا يتوهج عندنا أديب.. وأضفت ساخرة:
- من الأفضل أن تستوردوا سخافات مصر وتملأوا واجهـات المكاتـب بالكتب الجنسية، وقصص الكاوبوي الأميركية التي لا تمت الى واقعنـا بصلة.. هذا الواقع الذي يهز الجبال الشامخة وأنتم لاتدرون أو تحـسون به.. عن أية نهضة أدبية تريد مخلصا أن تساهم بها؟

ابتسم محرجا:

- انك تظنين أن هذا ذنبنا، أليس كذلك؟ المجال ضيق أمام الكتـاب الـسوري واللبناني، فمصر تغلق أبوابها دوننا، والعراق تغلق أبوابها دوننا، ولا يبقـى مـن القراء سوى الطبقة المثقفة في بلادنا، وهذه الطبقة ضئيلة، وتطالع باللغة الفرنسية عادة.. دعينا نأخذ كتابك مثلا، لو نزل الى السوق فانه سينزل الى الـسوق ولـن

تمتد اليه يد لأنك أديبة غير معروفة، هذا أولا، وثانيا ستكون كلفته غالية لأنه كبير الحجم، وحتى لو لقي نجاحا فماذا تظنين أنه يباع منه؟ وماذا تظنين أنه يبقى منـه بعد أن ننحي تكاليف طبعه والدعاية له، ونقله وتوزيعه وربح التاجر منه؟

وبدأ في سلسلة من الأرقام ولكنني لم أصغ، رحت أفكر كم مـن المواهـب الفتية دفنت على هذا الكرسي الذي أجلس عليه، أيمكن أن أصدق هـذه العمليـة الحسابية الطويلة؟ كان أخي عادل مرهف السمع يحسب في فكره وأخيرا قال:

- يبقى لك مائة ليرة لبنانية اذا كنت محظوظة وبيعت كل النسخ..

وابتسم الناشر كأنما يقول لي "ما أفعل؟ هذا قدر الأديب، عملية النشر عملية معقدة ينتفع منها كل المشاركين بها ما عدا الأديب نفسه صـاحب المـشروع، اذ يكفيه أن يرى اسمه مكتوبا على الورق".. اكتسى وجهه بتعبير متعـاطف كأنمـا يشاركني الألم لهذا القدر الظالم، ولعلي كنت أصدقه لأنه بالغ اللطف رقيق جـدا في إصغائه وابتسامته، ولكنه لم يلبث أن رفع الكلفة، وأخذ يسرد لنا قصة كفاحـه ونجاحه وكيف بدأ العمل صغيرا جدا وانتهى به كبيرا جدا.. لعلي كنت أصـدقه، وأمتثل لنصائحه، لأنني لا أدري السرفي النجاح الهائل السريع الذي يلاقيه مثـل هؤلاء الناس، ولكنني تذكرت الخمس وعشرين شهرا التي أتلفت فيهـا صـحتي، وضحيت بالمئات من الليرات كل شهر في التدريس لأكتب رواية أكون محظوظة لو نلت فيها مائة! ولم أر أنه بالغ اللطف رقيقا جدا في إصغائه وابتسامته، وأجلت عيني في أنحاء المكتب الأنيق بأثاثه الثمين والمكتبات الفخمة التي تطل من وراء زجاجها الضاحكة.. أهي حقا ضاحكة؟ أليس شعاعها دم المؤلـف الـذي يقطـر ليتحول الى ذهب في جيوب هؤلاء الناس؟

- سأعود للتدريس - قلت لأخي عادل- ولعلي أستطيع أن أطبع الكتاب يوما على حسابي..

لم يتركني أخرج دون أن يزودني بمجموعة من الكتب الأكثر رواجا لديـه، وانحنى على طرف المكتب يخط كلمات الإهداء، وقال وهو يناولني الكتب:

- فكري في الأمر، وابدئي حياتك الأدبية بالكتاب المترجم!

منذ ذلك اليوم آمنت بالوحدة العربية!